مفهوم الشعر عند النقاد المغاربة
في القرنين الثالث والرابع الهجريين

د. براهيم عبد النور

جامعة بشار

ملخص:

إذا كان النثر الفني يخاطب العقل أولا، فإن الشعر يخاطب العاطفة والوجدان بالدرجة الأولى، وذلك باستعمال قوة الألفاظ وحسن تأثيرها وبعد الخيال والصور البلاغية به وشيوعه بين الأفراد وتأثر هؤلاء الأفراد وارتباطهم به، فقد كان يجري على كل لسان تقريبا البيت والبيتان والمقطوعة، لذا اهتم به النقد أكثر من اهتمامه بالنثر فقد كان الشعر وظل أول موضوع أثاره النقاد الأوائل، فتكلموا على حده ونشأته، وفضله، ومزاياه، ومعناه وبينوا أنواعه وأقسامه، وعن المطبوع منه والمصنوع، والمتكلف، وعن ألفاظه وأوزانه وقوافيه.

أما بالنسبة للنقاد في المغرب فقد كان عبد الكريم النهشلي- فيما نعلم – أول من تعرض له بالدراسة وأفرد له كتابا خاصا عرف باسم- " الممتع في علم الشعر وعمله" ويهمنا أن نتعرف على نظرة النقاد المغاربة للشعر وطرق معالجته.

ABSTRACT

If the prose addresses the mind, the poet speaks primarily to the emotion and conscience, by using the power of words, fantasy, rhetorical imagination, images and its prevalence among individuals. For this purpose, critical persons were affected by the poet and they were associated with it. Therefore, poet remained the first issue raised by critical persons, and the first subject of their studies.

Abdul Karim Alnhishli was the first critic in Morocco - as far as I know - he wrote a special book in this field which is entitled “the Most Interesting in Poet”. This paper deals with the Maghrebian critics’ vision towards poet and their methods of treatments.

المقدمة :

إذا كان النثر الفني يخاطب العقل أولا، فإن الشعر يخاطب العاطفة والوجدان بالدرجة الأولى، وذلك باستعمال قوة الألفاظ وحسن تأثيرها وبعد الخيال والصور البلاغية به وشيوعه بين الأفراد وتأثر هؤلاء الأفراد وارتباطهم به، فقد كان يجري على كل لسان تقريبا البيت والبيتان

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

والمقطوعة، لذا اهتم به النقد أكثر من اهتمامه بالنثر فقد كان الشعر وظل أول موضوع أثاره النقاد الأوائل، فتكلموا على حده ونشأته، وفضله، ومزاياه، ومعناه وبينوا أنواعه وأقسامه، وعن المطبوع منه والمصنوع، والمتكلف، وعن ألفاظه وأوزانه وقوافيه.

أما بالنسبة للنقاد في المغرب فقد كان عبد الكريم النهشلي[1]- فيما نعلم – أول من تعرض له بالدراسة وأفرد له كتابا خاصا عرف باسم- " الممتع في علم الشعر وعمله" ويهمنا أن نتعرف على نظرته للشعر وطرق معالجته.

1- الشعر عند عبد الكريم النهشلي:

هل الشعر عنده هو القول الموزون المقفى كما عرفه بعضهم؟

إن الشعر عنده لم يكن مجرد ألفاظ موزونة ومقفاة أو أقوال تدل على معنى وإنما هو الفطنة والشعور، أي هو عاطفة وأحاسيس ووجدان متمثلا بقول العرب : ليت شعري بمعنى ليت فطنتي (والشعر عندهم الفطنة، ومعنى قولهم :ليت شعري: أي ليت فطنتي).[2]

وفي قول عبد الكريم النهشلي أن:" الشعر أبلغ البيانين وأطول اللسانين، وأدب العرب المأثور وديوان علمها المشهور" [3] فالشعر عنده أبلغ من النثر، وأهم منه لأنه ديوان العرب المشهور، ومع أن عبد الكريم كان كاتبا فإنه يقف في صف من يؤثرون الشعر ويرونه " خير كلام العرب"[4].

يتبين من خلال تحديد عبد الكريم لمعنى الشعر بالفطنة إشارة إلى عنصر الوحي والإلهام الذي هو مصدر للإبداع الفني الخالد، وهي قضية تنال اهتمام كبار النقاد والباحثين اليوم بما في ذلك الغربيون أنفسهم، فالشعر عندهم هو التعبير عن التجربة الشعرية، أي الفطنة والشعور كما عبر عنها عبد الكريم النهشلي الذي عاش فيما بين القرنيين الرابع والخامس الهجريين .

كما أكد النهشلي على أن الشعر خير كلام العرب، وأشرفه عندها، هذا الشعر الذي ترتاح له القلوب، وتجذل به النفوس، وتصغي إليه الأسماع، وتشحذ به الأذهان، وتحفظ به الآثار، وتقيد به الأفكار"[5] وذلك لاعتماده على العاطفة والخيال ولأنه يخاطب الوجدان ويدغدغ الأحاسيس وينبع من الشعور.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يورد النهشلي نصوصا كثيرة في فضل الشعر ومزاياه على أنه يسمح للشاعر أن يسمى الملك والسلطان ويدعوه باسم أمه في الشعر، وكذلك باسمه بغير كنية بينما ذلك غير مسموح به في النثر و"هذا من فضل الشعر"[6] وليس ذلك في النثر ويأتي بمثال على ذلك قول حسان بن ثابت في مدح الغساسنة:

أَوْلادُ جَفْنَةَ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيهِمْ قَبْرُ ابنِ مَارِيَةَ الكَرِيمِ الْمُفْضِلِ.

ويعلق على هذا البيت قائلا:" وقوله ابن مارية للشاعر أن يسمي الملك ويدعوه باسم أمه في الشعر وباسمه بغير كنية، وليس ذلك لغير الشعر بجائز إلا ضرورة على وجه الاحتقار، وهذا من فضل الشعر"[7].

بعد ذلك ينتقل عبد الكريم إلى قضية أخرى كثيرا ما تعرض إليها الأدباء والنقاد واختلفت وجهات نظرهم في ذلك ألا وهي أصناف الشعر وموضوعاته، فنظرتهم تختلف بحسب تكوينهم الفني وميولاتهم الذاتية ونـزعتهم الدينية وعبد الكريم نجده مرة يقسم الشعر من وجهة نظر دينية بحتة "الشعر أربعة أصناف: شعر هو خير كله وذلك ما كان في باب الزهد والمواعظ الحسنة، والمثل العائد على من تمثل به بالخير وما أشبه، وشعر هو ظرف كله وذلك القول في الأوصاف والنعوت والتشبه وما يفتتن به من المعاني والآداب وشعر هو شر كله، وذلك الهجاء وما تسرع الشاعر به إلى أعراض الناس، وشعر يتكسب به وذلك أن يحمل إلى كل سوق ما ينفق فيها، ويخاطب كل إنسان من حيث هو ويأتي إليه من جهة فهمه"[8].

وفي موضع آخر نجده يصنف الشعر الى أربعة أصناف فيقول :" أصناف الشعر أربعة : المديح والهجاء والحكمة واللهو، ثم يتفرع من كل صنف من ذلك فنون فيكون في المديح: المراثي والافتخار والشكر ثم يكون من الهجاء الذم والعتاب والاستبطاء، ومن الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ، ويكون من اللهو الغزل والطرب وصفة الخمر والمخمور".[9]

ومرة يستمد تصنيفه من ذوقه النقدي ومن ثقافته العامة. ويبدو تأثر عبد الكريم في مواضع من كتابه إلى جانب تأثره بـقدامة بن جعفر، ففي هذه القضية –أصناف الشعر– نأخذ على

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

النهشلي التردد في المواقف، وعدم الثبات على فكرة واحدة إذ نجده يكتفي بالرواية ويسرد الخبر دون أن يقوم بدراسة القضية والنظر فيها".[10]

الفرق بين الغزل عند العرب والعجم:

أورد ابن رشيق في كتابه "العمدة" خبراً أسنده- على الظن- إلى عبد الكريم قال: - أظنه عبد الكريم- :"العادة عند العرب أن الشاعر هو المتغزل المتماوت، وعادة العجم أن يجعلوا المرأة هي الطالبة والراغبة المخاطبة، وهنا دليل كرم النحيزة في العرب وغيرتها على الحرم"[11].

وقد أثار هذا الناقد بعض الملامح الدقيقة معتمدا على ذكائه إذ يفرق بين نوعين من الغزل غزل عربي يكون الشاعر متماوتا مفتونا، يصف فيه حبه وهيامه بمحبوبته وما يتعرض له من صد وهجران، وغزل عجمي تعكس فيه الحكاية وتظهر المرأة هي الطالبة الراغبة بينما يظهر الرجل غير مكترث بها وهذه التفاتة ذكية ولا شك أنها تدل على فطنة وذكاء عبد الكريم ودقته في الملاحظة، لكننا لا نغفل على ما نهجه بعض الشعراء العرب الذين خالفوا القاعدة مثلما صنع عمر بن أبي ربيعة وأظهروا المرأة في هيئة المحبوب الولهان الذي أضناه الوجد.ويبدو أن عبد الكريم كان بصدد الحديث عن شهامة العربي، فأورد هذا التقابل في المواقف –بين العرب والعجم- حتى يبرهن على كرم النحيزة عند العرب وغيرتهم على المرأة التي هي حرمهم المصون وشرفهم المقدس.

أثر اختلاف البيئة في الشعر:

إن أعمق ملمح أثاره عبد الكريم هو أثر اختلاف البيئات عامة في الشعر والذوق إذ يقول:" قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد، فيحسن في وقت ما لا يحسن في آخر. ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره، ونجد الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما استجيد فيه وكثر استعماله عند أهله بعد أن لا تخرج من حسن الاستواء، وحد الاعتدال وجودة الصنعة وربما استعملت في بلد ألفاظ لا تستعمل كثيرا في غيره كاستعمال أهل البصرة بعض كلام أهل فارس في أشعارهم ونوادر حكاياتهم ... والذي أختاره أن التجويد والتحسين الذي يختاره علماء الناس بالشعر ويبقى غابره على الدهر" [12].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إن عبد الكريم برأيه هذا يطرح موضوعا هاما جدا ما يزال يعيش معنا حتى اليوم إذ هو من اهتمامات كبار النقاد والشعراء، تلك هي الدعوة إلى العالمية لأن الشاعر الذي يبقى متأثرا بالمناخ الضيق والإقليم والبلد فإن شهرته لا تتجاوز حدود بيئته وهذا لا يمنع شعره من الخلود والاستمرارية والجديد الذي أتى به هو أن الاختلاف الإقليمي يترك أثره في الشعر لذا دعى إلى ضرورة الابتعاد عن بعض الكلمات الإقليمية الخاصة بمناطق معينة والشاعر الموفق هوا لذي يبتعد عن مثل هذه الظاهرة ويختار لألفاظه ما هو شائع ومشترك بين الجميع ومثل هذه الإشارة المبكرة من عبد الكريم تكشف عن تفهمه العميق للأدب الخالد الذي يبقى أبداً على مر الأجيال ويسير في كل البلاد، وقد تبنى تلميذه ابن رشيق هذه الفكرة ودافع عنها بشدة.

إن عبد الكريم عندما يتعرض إلى هذه القضية- مفهوم الشعر- ويثيرها كواحدة من أمهات القضايا الشعرية يكون قد طرح مشكلة هامة في ميدان الفن، ذلك أن الشعر عنده ليس نظما أو مجرد ألفاظ موزونة مقفاة، وإنما هو شعور وأحاسيس ومعان نابعة من الأعماق تعبر عن تجربة إنسانية تبرز بعد معاناة عنيفة، شعراً يعبر بصدق عن التجربة الفنية ويترجم بإخلاص العواطف الجياشة و"تزداد قيمة عبد الكريم لدينا من خلال ما تفرد به من بعض آراءه النقدية لتعريف ماهية الشعر الذي اشتقه من الشعور والفطنة.

ففهمه للشعر على هذا الأساس يعد شخصا سابقا لأوانه، فبينما كان النقاد يعرفون الشعر بأنه الكلام الموزون المقفى وهي نظرة شكلية بحتة، ينادي هو بفكرة الإلهام والفطنة والإيحاء وهي فكرة مستمدة من الفهم العميق لماهية الشعر ومعرفة خفاياه".[13]

2- مفهوم الشعر عند أبي إسحاق إبراهيم الحصري:

إذا كان الشعر عند عبد الكريم النهشلي عبارة عن إحساس وشعور، فإن الحصري[14] في كتابه " زهر الآداب" يكتفي بإيراد تعاريف مقتضبة للناشئ الأكبر، والخليل بن أحمد وعمارة بن عقيل، فالشعر كما عرفه هؤلاء " هو قيد الكلام وعقل الآداب وسور البلاغة ومجال الحنان... والشعر ما كان سهل المطال فصل المقاطع فحل المديح، جزل الافتخار شجي النسيب، فكه الغزل سائر المثل، سليم الزلل، عديم الخلل، رائع الهجاء"[15].و يورد هذه الأقوال دون أن يحدد فهمه

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com